على هامش التعليم الإلزامى
فى ظلال الهرم

بقلم الأستاذ زكى المهندس
مدرس التربية بدار العلوم

« لا يسعنى بكل أسف أن أقبل هذه المعاذير ، فيجب أن يكون لك مقال فى الجزء التالى » . تلك هى الكلمة الهادئة الرصينة الحازمة ، التى أجابنى بها صديقى رئيس التحرير ، حين ضَرَعتُ إليه أن يعفينى من الكتابة فى هذا الجزء التالى من الصحيفة . وكم قدمت فى سبيل ذلك من معاذير ، وأقمت من حجج ، ودعوت من شهود ، ولفقتُ من حوادث ونوازل ، فلم أدَعْ مرضا من الأمراض إلا ألحقته بنفسى وولدى ، ولم أترك مُلِمّة من الملمات إلا أنزلتها بالأقارب والأباعد من أهلى وأصهارى ، ثم جَهَدت فى شىء من الدهاء أن أرشوَ صديقى الرئيس باستعدادى للقيام بما يتطلبه هذا الجزء من أعمال إضافية .

حاولتُ هذا كله ، وطمعتُ فيه ، واحتلت له ، ولكنى عبثا حاولت ، ومحالا رجوت ، فقد ظهر أن صديقى رئيس التحرير لا تقبل عنده الشفاعة ، ولا تنجع فيه الرشوة .

إن له نظرة ثاقبة ، يكاد يستشف بها ماوراء الحُجُب ، وحسا دقيقا ، يوشك أن ينفذ به إلى قرارة النفس ، ومستودع السر ؛ هذا إلى عزم مضاء يتحطم حياله أقوى المعاذير ، ويفنى من دونه كل تأثير .

وإذاً فلا بد أن أكتب ، ولا مَفرّ من أن يكون لى فى هذا العدد مقال ، ولكن ماذا أكتب وأىّ الموضوعات أختار ؟ هذا موطن الحيرة والقلق . لقد كتبت فى قضية الأطفال يوم كان للأطفال قضية ، وأحسبنى قد أضجرتُ نفوس القراء بما فيه كفاية ، فليس لدىّ فى هذا الدفاع من مزيد ، ثم أية قضية تلك التى تدوم المدافعة فيها تسعة أشهر أو تزيد ؟ لا ، لن أكتب كلمة واحدة فى قضية

الأطفال . هذا عهدٌ علىّ لقراء الصحيفة ، فليطمئنوا .

لامناص إذاً من أن أكتب فى موضوع جديد ، ولكن فيم أكتب ؟ حقا إن اختيار الموضوع أشق من الكتابة فيه . فما للخيال فى هذه المرة يَعُقّنى ، والقلم يستعصى علىّ ! الكتب مبعثرة حولى ، منثورة بين يدىّ ، ولكنى أكره أن أحشوَ مقالى بما يُسطّر فى الكتب ، وبما يستطيع الناس جميعا أن يقرءوه فى غير الصحيفة ، هذا إلى أنى لستُ بطبعى جمّاعا للآراء ، فأنا لا أحسن الاستعارة ، ولا أسيغ الرواية ، ولا أطيق النقل ، ولا أصبر على الترجمة . أنقيصة هذه أم فضيلة ؟ فسِّرْها بما شئت ، وكيف شئت ، ولكنه طبعى الذى فطرتُ عليه والذى لا أستطيع أنا ولا أنت أن نغير منه ، أو نبدل فيه . عجبا ! عشر ليال تمر عجلَى مسرعات ولمّا أهتدِ إلى موضوع مقال ! كم استلهمت شعورى ، واستوحيت خيالى ، ولكن الشعور راكد ، والخيال مجدب . هأنذا أعتصر الذهن فلا يُجدى ، وأقدح زناده فما يُورى ، وقديما تحدث علماء الأدب عن شيطان الشعر ، فقالوا إن لكل شاعر شيطانا يلهمه المعانى ، ويُجرى بنانه بالقوافى ، وإن صحّ مايقولون فما أهنأ الشعراء بشيطانهم ! من لى بمثل هذا الشيطان النشيط يستجيب لندائى كلما ألحّ فى الطلب صديق رئيس التحرير ، وأبى أن يقبل منى المعاذير .

آه ! لقد وجدتها وجدتها . هذا محضر لجلسة ممتعة من جلسات « جماعة الأصدقاء » ، تناول الحديثَ حول فكرة التعليم الالزامى فى خطبتين شائقتين ، فلم لا أجعل هذا المحضر موضوع مقال ؟ ثم هو محضر فيّاض خصب ، يستنفد عدة صفحات من الصحيفة ، فماذا على لو نشرته برمته ، وكفيت نفسى مؤونة الشرح والتعليق ؟ فليكن .

« طبقا لقرار الجماعة فى الجلسة السابقة عقدت جماعة الأصدقاء جلستها الرابعة فى الأهرام فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ م .

وما انتصفت الساعة الرابعة حتى اكتمل عقد الجماعة ، لم يتخلف منهم سوى حضرة صاحب العزة محمد فهمى بك ، الذى اعتذر عن عدم حضور هذه الجلسة بعذر قاهر .

وفى تمام الساعة الرابعة قرئ على الأعضاء محضر الجلسة السابقة ، ثم أخذوا فى عملية الاقتراع لتعيين العضو الذى يختار موضوع الحديث ، ويبدأ فيه الكلام ، فأصابت القرعة حضرة صاحب السعادة الشيخ الجليل محمد راغب باشا ، فنهض سعادته ، وألقى الخطبة الآتية :

أصدقائى :

لقد قضى نظام جماعتكم أن تختاروا من بينكم واحدا يقترح موضوع الحديث ، ويبدأ فيه القول ؛ ولا ريب عندى ، أنكم تدركون أن تبعة الاختيار ثقيلة ، والبدء بالحديث تكليف شاق ، والمرء فى هذا الموقف خليق أن تدركه الحيرة ، ويتولاه الشك والقلق ؛ إذ يرى أن المسائل الحيوية التى يعنى الأمة أمرها فى الوقت الحاضر كثيرة متنوعة ، وهو لا يدرى ما يأخذ منها وما يَدَع ، فهناك أمور وأحداث تشغل أذهاننا جميعاً فى هذا الطور الجديد ، الذى ندرج فيه ، ونحن خلقاء أن نقف منها موقف الذى يقول :

تكاثرت الظبـــاء على خراش فمـــا يدرى خراش ما يصيد

غير أننى لحسن الحظ قد أصابتنى القرعة فى وقت تفيض فيه الصحف ، وتتشعب الآراء ، ويكثر اللجاج ، ويحتدم الخصام فيما أسماه الكتاب « مشكلة التعليم الالزامى » . هذه هى المسألة العظيمة الشأن والخطر ، التى أصبحت حديث المجتمعات ، وسمر المنتديات فى هذه الأيام ، وها أنتم أولاء ترون اللجان تجمع ، والمؤتمرات تعقد ، والميزانيات تقرر ، والضرائب تجبى ، وكلما كثر البحث ، واشتد الجدل ، أظلم وجه الحق ، وتضاعفت الشبهات ، وعميت الغاية ، وتعقدت السبل . ولكن العجيب فى هذا كله أننا نحن الذين صنعنا هذا المشكل بأيدينا ، ثم أخذنا نعمل الحيلة فى حله ، وتتلمس صواب الرأى فيه ، فكنا بذلك أشبه الملاح الأحمق ، الذى عمَد إلى زورقه فخرقه ، ليرى كيف يجرى الماء فى داخله ، فلما اشتد عليه الأمر ، تولاه الذعر والجزع ، فحاول أن يصلح ما أفسده ، ولكن بعد أن اتسع الخرق على الراقع . ذلك مثلنا — أيها السادة — فقد أبينا إلا أن ننسج من أوهامنا مسألة ، ونحوك من أخيلتنا مشكلة ، من غير أن يكون ثمة حاجة تقتضيها ، أو حافز

قوى يحفزنا إليها . انتزعنا مسألة التعليم الإلزامى من العدم . ثم وضعناها بين أيدينا ، نقلب الطرف فى جوانبها ونعتصر الذهن فى كشف معمياتها . فلما أعجزتنا أخذنا نصيح ونولول ، ونبكى ونستبكى ، فإذا قدر لكم أن تتساملوا عن الغاية من هذا النوع من التعليم أيا كان نظامه وخططه ومناهجه ، وإذا قدر لكم أن تجدوا لسؤالكم هذا مجيبا ، سمعتم كلاما كله هراء وهذر ولغو .

صدقونى — أيها الأصدقاء — إذا قلت إن هذا الشغف الظاهر ، و الحماسة المتأججة فى صدورنا لهذا النوع من التعليم ، ليست إلا مظهرا من مظاهر تلك العاطفه الجامحة القوية ، التى سادت نفوسنا فى السنوات الأخيرة ، تلك العاطفة التى دفعتنا إلى تقديس الأمم الأوربية تقديسا كان له أثره فى أفكارنا وأعمالنا وسلوكنا ، لقد خيّل إلينا أن حياة أوربا هى المثال الأعلى ، الذى يجب أن نحتذيه ونهتدى به ، فهم يفكرون على أسلوب خاص ، فيجب أن نحاكيهم وهم يؤثرون نوعا من الثياب ، فيجب أن نتزيا بأزيائهم ، وهم يفضلون ألوانا من المآكل والمشارب ، فيجب أن يكون طعامنا مثل طعامهم ، ثم هم يعنون بتعليم فلاحيهم وصناعهم ، فكذلك يجب أن نفعل بفلاحينا وصناعنا ، تلك هى العاطفة التى استهوت قلوبنا ، وملكت علينا نفوسنا ، وهى هى التى تترامى لنا اليوم فى صورة خادعة فتانة ، فتحفزنا إلى استحداث هذا النوع من التعليم ، ولا ريب عندى أنكم — أيها الأصدقاء — ستتلقون حديثى اليوم فى شىء غير قليل من الدهش ، بل الجزع ، فستقولون : « يالله ! من ذا الذى تبلغ به الجرأة فى القرن العشرين أن يقوم بين طائفة من ذوى الثقافة العالية ، يحاول أن يجعل فكرة التعليم الالزامى موضع نقاش أو جدل ؟ أليس تعليم الشعب غنيه وفقيره ، فلاحه وصانعه ؛ فرضا وطنيا مقدسا ؟ أليس التعليم فى ذاته من أقوم الوسائل لتوفير السعادة للأفراد والجماعات ؟ ومن ذا الذى لا يودّ أن تمتد به الحياة ليرى فلاحينا سائرين خلف ماشيتهم فى الصباح ، وكل منهم يتأبط كتابا ، أو يمسك بصحيفة ؟ ألا إن هذا لهو الأمل المنشود ، وإن مصر المتعلمة المثقفة لهى الفردوس المفقود » . أجل ستقولون هذا — أيها السادة — وسيهمس بعضكم بأكثر منه . غير أنى أؤكد

لكم أن كثيرا مما تقولون وما تهمسون به ليس إلا مظهرا آخر لتلك العاطفة الجامحة القوية ، التى تعمى اليوم أبصارنا عما فى هذا النوع من التعليم ، من آثار وبيلة ، وعواقب وخيمة .

وأنا لا أحب هنا أن أتناول فكرة التعليم الالزامى فى جملته وعمومه ، بل أوثر أن أترك لكم المُدُن فى صخبها وجلبتها وضوضائها . سأترك لكم المدن بعيوبها وشرورها ومفاسدها ، فهذا رجل المدينة أمامكم ، فاصنعوا به ماشئتم ، وزيدوه بالتعليم تعسا وفاقة إن أردتم ، أطفئوا فيه غليل تلك العاطفة الجائشة فى صدوركم ، أشبعوا فى حياته هذه الشهوة المتأججة فى نفوسكم ، فليكن رجل المدينة كما شئتم أن يكون ، فما أنا بلائمكم فيه ، أو محاسبكم عليه .

ولكن يشقّ علىّ - وايم الحق - أن أراكم تتجاوزون بهذا التعليم حدود المدينة إلى تلك القرى الهادئة الوادعة المطمئنة . تنتزعون منها ذلك المخلوق الحر الكريم ، لتُلقُوا به فى حجرات مظلمة ضيقة ، وبين يدى معلم ساذج يقتل فيه خير ما وهبت له الطبيعة من صفات نبيلة ، وهمم شماء ، وخلال كريمة ، وكل هذا فى سبيل ثقافة (استغفر الله بل فى سبيل أشتات وقشور من المعلومات) تافهة ناقصة مضطربة ، لا تجديه نفعا ، ولا تصلح من حياته أمرا .

لقد افترضتم - أيها السادة - أن تعليم الفلاحين يجلب لهم السعادة ، ويدر عليهم أخلاف الرزق ، كما افترضتم كذلك أن هذا التعليم يكفل للأمة ماتصبو إليه من مجد ورفعة ، وأراكم والله قد أخطأتم فى الأولى خطأ لا يعدِلُه إلا خطؤكم فى الأخرى ، فأية سعادة تلك التى يجلبها هذا التعليم للفلاحين أو الصناع ؟ وهل السعادة إلا انسجام واتّساق بين المرء وبيئته ؟ أو ما تحدث حكماؤكم وفلاسفتكم عن السعادة بأنها القناعة بما قسم ، والرضا عما وقع ، وأن المرء لايزال بخير ماقنع ، فان طمع فى منزلة فوق المنزلة التى هيأها له القدر ، كان خليقا بالشقاء حريا بالتعس؟ أو ليست هذه الحِكَمَ المأثورة التى ورثناها عن الآباء والأجداد ؟ وهل كان شاعركم عابثا أو هازلا حين يقول :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ناشدتكم الله ـ أيها الأصدقاء ـ هل رأيتم فيما رأيتم رجلا أرضى بما لديه ، وأقنع بما عنده ، وأهنأ بما قسم له ، من هذا المخلوق الصابر الوادع ؟ هل عرفتم ـ فيما عرفتم ـ نفسا أكثر اطمئنانا ، وأشد ثقة بالله وبقضائه من هذه النفس البريئة النقية ، التى تستكن تحت تلك الأطمار البالية ؟ هذا هو فلاح مصر بين أيديكم ، وبمرأى منكم ، فتشوا فى ثوبه الخلَق ، فهل ترون إلا جلدا لا يعتريه مَلال ، وصبرا لا يتطرق إليه وهَن ! ويقينا لا تعتوره الشُبُهات والريب ، وإيمانا صادقا لا تزعزعه المطامع والأهواء ؟ هذا هو فلاح مصر كما صنعته الطبيعة ، وكما يجب أن يكون كل فلاح ، بل كما يجب أن يكون كل رجل ، فماذا دهاكم من عيوبه وأخلاقه ، حتى نجيئونا اليوم تُحدِّثوننا عن سعادته وهناءته ؟ الحق أن تعليمكم الفلاح ـ أيها السادة ـ يمكن أن يجلب كل شىء إلا تلك السعادة الوهمية التى تملئون بها صحفكم ولجانكم ومجالسكم .

إنكم لتأبَون إلا أن تصنعوا الفلاح بأيديكم ، ولكن هل تدبرتم الأمر ، وروّيتم فى العاقبة ؟ تقولون : إن تعليم الفلاح يزيد فى معارفه ، ويوسع من خياله ويغذى من وجدانه ، ويرهف من عقله ، فليكن هذا كما تريدون أن يكون ، ولكن هل دَريتم أنكم إلى جانب هذا تخلقون فيه المطامع ، وتوقظون فيه النزعات والشهوات ، وتزيدون فى تكاليف حياته ، وتفسدون عليه ذلك الجو الروحى البديع الذى ينعم الآن به ، وتُلقون به فى ذلك اليم المضطرب الأمواج ، المترامى الأطراف ؟

ثم خبِّرونى ـ يا سادة ـ ماذا جنَيتم من تعليم غير الفلاحين سوى تلك الأخيلة الشاردة ، والعواطف الجامحة ، والنفوس الضعيفة القَلِقَة ، التى أفقدها التعليم كل صبر وجلد على مقاومة تصاريف الحياة ، وأحداث الدهر ، حتى أصبحت لا تبغى بغير المناصب الحكومية بدلا ، أو تطلب عن غير العمل المريح عِوَضا ؟ اذهبوا وأصلحوا أولا نظم مدارسكم ، وأساليب ثقافتكم ، فى غير التعليم الالزامى ، قبل أن تتحدثوا عن تعليم الفلاح ، وقبل أن تعرضوه لتلك التجاريب التعسة التى ما زلتم تعرضون لها أبناءنا وبناتنا فى مراحل التعليم الأخرى ، فاذا كنتم إلى الآن

عاجزين - كما يبدو لنا - عن تعليم غير الفلاح ، فأنتم والله عن تعليم الفلاح أعجز لا ، لا ، اتركوا رجل الطبيعة كما أرادت الطبيعة أن يكون . هذا هو الواجب المقدس الذى تفرضه عليكم الوطنية . اتركوا الفلاح للطبيعة ، فهى أهدى له ، وأحنى عليه ، دعوه يعالج بنفسه شئون حياته الساذجة ، ويحتمل ثمرات هذا العلاج من خير أو شر . كتاب الطبيعة مفتوح أبدا أمامه . فدعوه يقرأ هذا الكتاب الذى لا يكذبه ولا يخدعه .

ماذا تنشدون فى الرجل غير ذى الخلق القويم ، والإرادة الصادقة ، والقلب البرىء الطاهر ، والضمير النقى ، والسلوك الحسن ؛ فثقوا معى بأن هذه الصفات موفورة فى الفلاح لا يعوزكم أن تشهدوها بأعينكم وتلمسوها بأيديكم ، ولكن فى المواطن التى لا يغشاها المدرسون ، ولا المفتشون ، ولا الأدباء والمفكرون .

لا أسألكم — أيها السادة — سوى أن توازنوا بين هذا الفلاح الماثل أمامكم ، وذلك الفلاح الجديد ، الذى تحاولون اليوم أن تصنعوه بأيديكم ، وازنوا وانظروا كم فروق بين الرجلين . إنى مؤمن أشد الايمان بأن فلاحكم الجديد سيكون أسوأ من عرفت أرض مصر من الفلاحين ، فى تاريخها الطويل . وإنى ليعروني الأسى ، ويتولانى الحزن والخوف ، كلما تصورت ذلك الفلاح الذى ستشهده مصر بعد بضع عشرات من السنين إنى لإخال فلاح المستقبل رجلا غضوبا ملولا برماً بكل شىء ، متذمرا من كل شىء . يُخلد إلى الراحة ، فلا يبكر إلى حقله . ولا يعنى كل العناية بماشيته ، يترقب كل فرصة لينصرف عن أرضه وعمله ، إلى صحيفة يتتبع أخبارها أو رواية يتقصى غرائبها ، يشعر بأنه مهيض الجناح ، أو مهضوم الحق ، فلا يفتأ يطلب مزيد الأجر ، فإن عز عليه ذلك أقام الدنيا وأقعدها ، وقد ينزع إلى الخصام ، ويلجأ إلى العنف ، فإن أيأسه ذلك كف عن العمل ، وهجر بلده إلى حيث يجد ما يسد مطامعه ، ويرضى شهواته ، هذا هو فلاحكم الجديد كما تصورته . ولا ريب عندى أن الواقع سيكون أكثر مما ظننت ، وفوق ما تصورت . أتلك هى السعادة التى تحاولون أن توفروها للفلاح ! .

نى لا أتردد فى أن أعترف معكم بأن حياة فلاحينا فى أشد الحاجة إلى إصلاح

يوفر لهم السعادة ، ويحقق لهم طيب العيش . ولكنى أوكد لكم أن وزارة المعارف هى آخر ما تحتاج إليه قرانا وأهلونا . وإنما مصلحة الصحة ، وقسم البلديات ، ووزارة الزراعة ، هى التى يجب أن تلقى عليها تبعة الاصلاح ، فأقيموا للفلاح المشافى ، وأكثروا الإساة ، عالجوا مشربه الرنق مما يرتع به من جراثيم وحشرات ، أبعدوا عنه البرك ، اردموا له المستنقعات ، شقوا له الطرقات ، شيدوا له المساكن الصالحة ، ثم أرشدوه إرشادا عمليا فى زراعته ، وفى تربية ماشيته وطيره .

وإذا فعلتم هذا تكونون قد أنصفتم الفلاح ، ووفرتم له حياة طيبة وعيشا رغدا .

وإن أعجب العجب (فيما تفرضونه للتعليم الإلزامى من غايات) ادعاؤكم بأن تعليم الفلاح سيرقى بالأمة صُعُدا إلى المجد ، ويسير بها قُدُما إلى العظمة والشرف ، ويجرى بها طَلَقا فى سبيل السعادة والطمأنينة . ولكنى أراكم هنا أيضا تتحدثون عن سعادة المجتمع ، وهناءة الأمة ، بأسلوب خادع فتّان ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قِبَله العذاب . فهل تصورتم ما تكون عليه حال المجتمع المصرى بعد عشرات السنين إذا قدر لكم أن تستمروا فيما أخذتم فيه من تعليم الفلاحين .

آه ، لو تستطيعون أن تقتحموا جوف المستقبل بأبصاركم وبصائركم إذاً لأدركتم ما يحمله لهذه الأمة الهادئة الوادعة من أرزاء ونكبات ، ويومئذ تعرفون أية حال من الفوضى والاضطراب والفزع تعانيه مصر وأهل مصر .

انظروا — أيها السادة — هؤلاء الفلاحون المتعلمون الغاضبون قد ثاروا على أصحاب الأراضى ، وأقبلوا يحملون فؤوسهم ومناجلهم ، هؤلاء الفلاحون المتعلمون يهجرون حقولهم ودوابهم استمعوا اليهم إنهم يطالبون بزيادة الأجور ، ونقص ساعات العمل ، ويقررون الاضراب حتى تجاب مطالبهم .

وتلك هى نقابات الفلاحين تؤلف ، ومؤتمرات الفلاحين تعقد ، هاهى ذى الحكومة تتدخل فى الأمر وتواجه أسوأ مشكلة اجتماعية عرفتها حكومة مصرية . ثم هذه هى المجاعة والفقر والفاقة تهدد التجار والصناع والموظفين من إضراب الفلاحين ، وهذا المجتمع المصرى صغيره وكبيره غنيه وفقيره خاصته وعامته يعانى من ثورة الفلاحين ما يعانى ويكابد منها ما يكابد .

هذه الصورة البشعة التى تحاولون أن تدفعوا إليها مصر بأيديكم وباختياركم ، ثم تجيئون اليوم فتتحدثون عن العظمة والمجد والشرف والسعادة .

ان التاريخ — أيها السيادة — يضرب لكم أبلغ الأمثال ، فسلوه يحدثكم بما يعرفه كل إنسان من أن تلك المبادئ الهادمة الفتاكة من بلشفية واشتراكية ، إنما وجدت منبتها الصالح ومرتعها الخصيب فى تلك البيئات التى ارتفع فيها مستوى المعيشة لطبقات العمال والصناع والفلاحين ، مما أفضى إليه التعليم . سلوا التاريخ يقص عليكم أن هذه الزلازل والعواصف الاجتماعية فى العالم ما كانت لتجد سبيلها الى النفوس لو ظلت هذه الطبقات العاملة قانعة بحياتها ناعمة بجهالتها .

ولا أريد أن أختم كلمتى هذه من غير أن أعود فأكرر لكم — أيها الأصدقاء — إنه لا يعنينى موقع حديثى من قلوبكم ، ومنزلته من نفوسكم ، وإنما الذى أحب أن تذكروه دائما هو أن هذا الصوت الذى ارتفع اليوم بينكم ، هو صوت فلاح وابن فلاح ، هو صوت رجل يعاشر الفلاحين ، ويقاسمهم حياتهم ، ويعرف ما ينفعهم وما يضرهم . اذكروا هذا واذكروا فوق هذا أن طائفة كبيرة من ذوى الأراضى الواسعة ، ممن خبروا الفلاحين ، وبلوا حياتهم ، يشاطرونني رأيى ، ويذهبون مذهبى ، وحسبى هنا أن أكون قد نبهتكم إلى ما يكنه المستقبل لهذه الأمة من نكبات لا يعلم إلا الله مدى عواقبها وآثارها ، فهأنذا قد أنذرتكم ، وقد أعذر من أنذر » .

ثم قام على إثر ذلك الشاب النابه أحمد لطفى بك ، وردّ على خطبة سعادة الباشا بالكلمة الآتية :

ربّاه ! ما للأرض ثابتة لا تميد وتضطرب ؟ وما للهرم راسخاً لا يميل ويتحطم ؟ وما لأبى الهول يرمقنا صامتا لا يتكلم ؟ وما للنيل يجرى رفيقا لا يفيض ويطغى ؟ هذه معالم الخلود حولنا تفاخر الدهر بما شهدت من دول ، ورأت من أقوام وأحداث ، وعرفت من شرائع وقوانين ومذاهب وآراء ، فليت شعرى هل رأت كاليوم فيما رأت ، وهل سمعت كهذا الصوت فيما سمعت ؟

ايه بناة الأهرام ، ايه فراعنة مصر ، وسادة الشعوب ، وقادة الملك ، ألا هبُّوا

من مراقدكم وانفضوا غبار الموت الأبدى عن أجفانكم ، هبُّوا يا سادة ، وأرهفوا من أسماعكم وأطلقوا ألسنتكم . حدثونا ولو ساعة من نهار : ماذا صنعتم بمصر ، وماذا صنعت مصر بكم ؟ خبرونا عما استحدثتم فى عهودكم السحيقة من نظم ومبادئ فى هذا البلد الأمين الخالد .

نصُّوا علينا - يا سادة - كيف استطعتم أن تقرنوا فلاح مصر بمعبوداتكم ، فتجعلوا منه إلها تسجدون له من دون الله ؟ نبئونا كيف استطاع قساوستكم وكهنتكم أن يلقوا فى روع العامة أن التعليم شرط للنجاة من عذاب الآخرة ، وأن (ازوريس) العظيم الجبار لن يرضى أن يصطحب فى زورقه المقدس نفسا أمية جاهلة لا تستطيع أن تقرأ كتاب الموتى أو تتذوق مواعظ (فتاح حوتب) العالم الحكيم .

عرفونا كيف كان ذوو اليسار من قومكم يرعون أبناء الفلاحين ، ويؤوونهم فى مساكنهم ، ويقومون بنفقات تعليمهم فى تلك المعابد المظلمة الرهيبة ، ليتخذوا منهم بعد ذلك خدَما لبيوتهم ، وزراعا فى حقولهم ، وأمناء لمخازنهم .

تحركوا - يا سادة - من نواويسكم ، وانظروا ماذا صنع الدهر بمصركم العزيزة الغالية ، التى حرصتم كل الحرص على أن تكتبوا لها صفحة من الخلود ، لا يطاولها الزمن ، ولا تنال منها صروفه وأحداثه . هل دريتم أن صوتا سيرتفع بعد أربعين قرنا بجوار مقابركم المقدسة ينادى فى غير رهبة أو حياء بأن الفلاح المصرى يجب أن يظل أميا جاهلا ، لأنه ناعم بجهالته سعيد بأميته ؟ ترى لو ارتفع مثل هذا الصوت فى أيامكم المجيدة السعيدة ماذا كنتم صانعين بصاحبيه وسامعيه ، والآخذين به ، والعاملين عليه ؟

عفوا - سادة مصر - لقد غفرتم لأهل هذا البلد كثيراً من الذنوب والسيئات التى تجنَّوا بها على أشخاصكم المقدسة ، وتاريخكم الخالد . غفرتم لهم أن يتركوا الغرباء عنكم وعن أرضكم ، أهليكم يعيشون فى ماء هذا النيل المقدس ، الذى كنتم تحرمونه على غير أهل مصر ، وتحرصون على ألا يمسَّه إلا المطهرون ، غفرتم لهم أن يدَعوا تلك اليد الأجنبيه تنتهك حرمات مقابركم ، وتعبث بجسومكم وجسوم

نسائكم وإمائكم تعرضها للمارة والسائحين يتفكهون بمرآكم . غفرتم لهم هذا ، وعفوتم عن كثير مثله . فهل تغفرون اليوم لفريق من أبنائكم يأبَوْن إلا إذلال الفلاح واستعباده ؟

مَنْ لى بهذا الصوت القوى الرهيب صوت (لوثر) الذى كانت ترجّع صداه آفاق أوربا وهو ينادى بأن التعليم فرض على كل انسان ليكون عَوْنه فى فهم الدين على وجهه الحق ، وتخليص روحه من ترّهات الكنيسة وأباطيلها .

ألا رعى الله جدث ذلك المربى العظيم (قسيس مورافيا) الذى طالما نادى بأن التعليم حق لكل انسان ، لأنه انسان بغضّ النظر عن مكانته وطبقته وثروته وجنسه ؛ وكم أهاب بحكومات القرن السابع عشر أن تعنى بتعليم أفرادها حتى لا يكونوا فى كل انقلاب اجتماعى أو سياسى كالحُمُر المستنفرة ، يتبعون أول ناعق ، ويسيرون وراء كل ضال .

ومَنْ منا لا يذكر هذا المصلح الاجتماعى العظيم (بستالوتزى) ، الذى ضحى بكل ما يملك من مال ونشب فى سبيل تعليم الفقراء من أبناء الفلاحين ، فجعل منهم رجالا مثقفين ، يدركون ما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات . أنصتّ إليه وهو يقول : « خير خدمة يقدمها المرء لقومه ووطنه هى أن يعلم الفقراء كيف يعتمدون على أنفسهم » . أين هؤلاء وأمثالهم ، بل أين دعاة الديمقراطية ورسل الانسانية الذين نادوا وما يزالون ينادون بأن التعليم حق الفرد على الحكومة أو المجتمع ، وأنه لا يقل شأنا عن حق الحياة ، وحق الملك ، بل لقد أصبح فى حياتنا الراهنة من الحقوق الطبيعية الأولية ، كالمأكل والمشرب والكساء .

أين هؤلاء وأولئك ليسمعوا السيد المحترم يقوم بيننا فلينكر من تعليم الفلاحين وينذرنا فى ذلك بالويل والثبور ، وعظائم الأمور .

أصدقائى :

لقد سمعنا اليوم حديثا عجَبا ، وكان من الهيّن علينا أن نجعله دَبْر آذاننا ، بل تحت أقدامنا ، لو لم يكن صادرا عن شيخ عالم مثقف مجرّب ، قضى شطرا من شبابه فى أوربة ورأى بعينيه هاتين ، كيف يعنى القوم هناك بتعليم فلاحيهم وصناعهم ،

وكيف يجنون من ذلك ثمارا شهية . ولكن أدهى من هذا وأمرّ أن يؤكد لنا سعادة الباشا المحترم أن هذا الرأى الذى أبداه اليوم ليس خاصا به ، ولا مقصورا عليه . وإنما هو رأى فريق من الناس يدّعون أنهم يتكلمون باسم الفلاح ، ويدافعون عن مصلحته .

لقد كنا نحسب أن هذا الصراع الدائم بين القوة والضعف ، بين الغِنَى والفقر ، بين الديمقراطية والارستقراطية ، قد انتهى أمره فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر المدنية والنور ، ولكن يلوح أننا كنا واهمين ، فإن هذا الجلاد ما يزال ناشبا بين الفلاحين وأصحاب الأراضى فى مصر ، وعلى ضفاف هذا النيل الوادع .

وهل أتاكم — أيها السادة — نبأ ذلك السائح الأمريكى ، الذى راعه أن يرى مدينة القاهرة قد خلعت ذلك الرداء العتيق ، وأخذت بنصيب من المدنية جدد شبابها ، وزاد فى روائها . فأدركَتْهُ من ذلك سَوْرة ، وأخذته عزّة ، ومضى إلى سفيره محتجّا بأنه إنما أنفق فى رحلته ما أنفق ، ولَقِىَ فى سفره من النَّصب ما لقى ، ليرى القاهرة بلدا شرقيا كما كانت ، وكما يجب أن تكون كل مدينة شرقية . أما الآن وقد أخذت زُخرُفها وازّينَتْ . فليس فيها ما يشوق النفس ، ويمتع الخيال . فهل ترون هناك كبير فرق بين موقف الباشا المحترم من الفلاح ، وموقف ذلك الأمريكى الأحمق من القاهرة وسكان القاهرة ؟ . حقا إن هؤلاء السادة من الأغنياء إنما يستطيعون أن يلهوا بالفلاح ، ويجدوا فى حياته ما يشوقهم ويمتعهم إذا ظل كما هو الآن شقيا تاعسا جاهلا غبيا ، أما ذلك اليوم الذى يصبح فيه هذا المخلوق ذا كرامة وإباء وعزة ، فهو ولا شك يوم عسير ، على الموسرين غير يسير .

أجل . سيكون لدينا بعد عشرات من السنين فلاح جديد ، وسيكون له مع هؤلاء السادة شأن غير شأنه اليوم ، نحن أول من يدرك هذا . ويؤمن به . سيكون فلاحنا الجديد عزيز الجانب ، أبىّ النفس ، سيكون حريصا على حقوقه ، حرصه على القيام بواجباته ، سيكون شاعرا بأنه مخلوق مستقل ، له إرادة ، وفيه قوة ، وسيأبى فلاحنا الجديد أن يسرح مع الهَمَل أو يُحشَر فى زمرة البهائم . وسيعرف فوق هذا كيف يحطم تلك الأغلال التى يودّ أصدقاؤنا الأغنياء أن يظل مكبلا

بها، راسفا فيها . ويومئذ يدرك سعادة الباشا ومن لفّ لفه ، وذهب مذهبه ، أن الفلاح لا بد أن ينصف ، وأن يقام له وزن . ماداموا يعيشون على حسابه ، وبفضل قوة ذراعه وعرق جبينه .

نحن لا نلومكم — أيها السادة — فيما تذهبون إليه ، ولكن نرثى لكم ، فأنتم والله أحق بالرثاء منكم باللوم . إنكم لتدركون أكثر مما ندرك أن تعليم الفلاح سيضطركم إلى تغيير تلك الأساليب التى ألفتموها حتى اليوم فى معاملته ، سيرغمكم على أن تتبعوا طرائق أرفق وأعدل ، ستفقدون شيئا من هذا الجاه العريض ، والسلطان الواسع ، ستحرمون لذة الاستمتاع بهذا النفوذ المطلق الذى تبسطونه اليوم على عمالكم وفلاحيكم ، ستحرمون كل هذا ، وستحرمون مع هذا شيئا من التقديس لذواتكم وأشخاصكم، أىّ شىء أشق على النفس وأوجع للقلب مما تُحرَمون؟ ليس عجيبا أن تكونوا أعداء لكل إصلاح حتى يتناول الفلاح ، بل العجيب ألا تكونوا كذلك . كيف ننتظر منكم أن تعينوا بإرادتكم وباختياركم على تعليم الفلاح ، فتوقظوه من سُباته ، وتنبهوه من غفلته ؟ أنتم لا تستطيعون أن تنسوا ذواتكم ومصالحكم . ما أشبهكم برجل يعيش فى غرفة من المرايا فحيثما ولّى وجهه لا يرى إلا نفسه . أنتم لا ترون فى الفلاح سوى مخلوق تافه حقير ، سخّر لكم ، فلكى تنالوا أطيب طعام على موائدكم يجب أن يموت الفلاح جوعا ، ولكى تستمتعوا بلذيذ الشراب يجب أن يقتله الظمأ ، ولكى تخفُوا إلى الأقصر كل شتاء ، وإلى أوربا كل صيف ، يجب أن يكدّ ويكدح فى الهجير وفى الزمهرير ، ولكيلا يشعر بأنه مهيض الجناح أو مهضوم الحقوق يجب أن يظل — كما هو الآن — جاهلا أميا .

هذه هى الحقيقة التى تجيش بها نفوسكم مجرّدة من هذا الزخرف البرّاق الفاتن ، الذى تحاولون أن تخدعونا به ، لتُلقوا فى روعنا أنكم إنما تبتغون سعادة الفلاح ، وتناضلون عن مصلحة الفلاحين .

ولكن العجب لكم — أيها السادة — حين تخوضون فى المستقبل ، تنتزعون من جوفه المخاوف ، وتتلسون فى طيّاته الثورات والمهالك ، وما أراكم والله فى هذا إلا ضالين أو مُضلّين ، من سواكم يعتقد أن التعليم أيا كان نوعه يولد

بين الناس الفتن ، ويربى الأحقاد ، وينبت السخائم ؟ ما كان التعليم لينتج شيئا من هذا ، وإنما الذى يولده ويعين عليه ، بل يغرس شراً منه ، تلك الجهالة الجهلاء ، والأمية العمياء ، التى يتمرغ الفلاح الآن فى حمأتها ، والتى تأبون لمصلحتكم إلا أن يظل غارقاً فيها ، شقياً بها . سلوا رجال الأمن ورجال الاحصاء ينبئوكم بأرقام حاسمة ، هى فوق كل نزاع أو جدل ، بأن الأمن لا يُستقر ، والطمأنينة لاتسود ، إلا فى تلك البيئات الريفية ، التى أخذت من التعليم نصيباً موفوراً . بقىَ ذلك الخصام الذى تؤكدون لنا أنه لا محالة واقع فى الغد القريب بين الفلاح المتعلم وبينكم . وأنا فى الحق لا أدرى كيف تقع تبعة هذا الخصام على التعليم . هاكم بعض طوائف الصناع والعمال فى القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة المصرية . فقد بدأ النزاع يحتدم بينهم وبين أصحاب الأعمال على الأجور وساعات العمل ، مع أن صناع مصر وعمالها على ما نعلم من الجهل والغباء ، بل إن مكتب العمل فى وزارة الداخلية ليستطيع أن يؤكد لكم أن جهالة هؤلاء العمال هى التى تورث نيران العداوة ، وتزيد هذا الخلاف قوة وعنفاً . وليس ذلك بعجيب . فانما الرجل الجاهل الضعيف الارادة هو الذى يعمد فى شئونه إلى الخصام ، ويلجأ إلى القسوة والعنف ، ويخلط فيما له من حق ، وما عليه من واجب ، ويخطىء فى فهم الصلات والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس ، أفبعد هذا تصرُّون على أن التعليم علة كل خصام إن وُجد ، وأن الجهالة لها الفضل فى منعه إن لم يُوجَد ؟ يجب أن تدركوا — أيها السادة — أن لتلك الخصومات التى تقع هنا وفى أوربا بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال عللا وأسباباً ، ليس التعليم واحدا منها ، وإنما السيطرة الغشوم ، والاستبداد المطلق ، والشرَه القتّال ، هى التى تغرس الضغائن ، وتولّد سوء الظن بين الناس .

صدقونى — أيها الصحاب — أنكم لا شك مدركون بتعليم عمالكم أكثر مما تدركونه اليوم بجهالتهم وأميتهم ، فالفلاح المتعلم سيكون أرعَى لمصالحكم ، وأحرص على أموالكم ، وأكثر انتاجاً لغلاّتكم ، وأبصر بتربية ماشيتكم

ودوا بكم ، و أقدر على استئصال العلل والآفات التى تلحق مزروعاتكم : وستجدون فيه من هذا كله رجلا تعتمدون عليه ، وصديقاً تثقون به ، وتركنون اليه ، فأى خير يخبئه لكم تعليم الفلاح ! وأى جزاء يُسبغه عليكم تعليم الفلاح ! بل أية راحة وطمأنينة يُعقبها لكم تعليم الفلاح ! وبعد . فاعلموا — أيها السادة — أن نشر التعليم الالزامى بين طبقات الفلاحين والصناع ، هو قضاء الطبيعة ، وحكم التطور ، وأن للطبيعة صوتاً أقوى وأروع من أصواتكم ، وأن للتطور نفوذاً فوق نفوذكم ، وأن للحياة ناموساً لا يشذ من أجل مصالحكم ، فهو لابد بالغ مبلغه ، ومدرك غايته ، فليس فى وسعكم — (أية كانت ثروتكم ومنزلتكم) — أن تعكسوا دورة الفلك ، أو تؤخروا سير الزمن . فالفلاح لابد أن ينال قسطه من التعليم ، وأن يستمتع بنصيبه من الحياة ، هذا حكم الطبيعة الذى يجب عليكم وعلينا أن نسلم به ، ونخضع له . هدانا الله و إياكم سبل الرشاد » .

وقد انتهى العضو المحترم من خطبته فى منتصف الساعة السابعة ، وقد جن الليل ، وساد الظلام ؛ فقررت الجماعة ارجاء النقاش فى هذين الخطابين إلى الجلسة المقبلة .

(صورة طبق الأصل)

زكى المهندس

— ١٢ —

نظر بعض الحكماء إلى رجل يرمى هدفا وسهامه تذهب يمينا وشمالا ، فقعد فى وجه الهدف ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : لم أر موضعا أسلم منه .